الفصل الأول

معنى كلمة الحبشة

هناك جدل وخلاف يدور حول مدلول كلمة الحبشة هل يقصد بها المنطقة التى تشمل منابع النيل ومصر والسودان أم تشمل المنطقة التى ينبع منها نهر النيل فقط أم القرن الأفريقى بأكمله وهل هى بخلاف أثيوبيا الحالية أم تشملها الوجوه المحروقة أو السوداء أو الزيتونية اللون هذا ما يعنيه اللفظ الإغريقي (Aethiops) ويتكون من مقطعين: (Aitheim) بمعنى محترق ، (ops) بمعنى وجه ومن الذين استخدموا هذا اللفظ هوميروس الشاعر وهيرودوت المؤرخ اليونانيان ، وديوردور من مؤرخي الرومان أوائل ظهور المسيحية، قسم هؤلاء المؤرخون سكان تلك المنطقة تقسيماً عرضياً إلى مجموعتين كبيرتين هما: الأثيوبيون الشرقيين ، وموطنهم بلاد العرب وسوريا وما بين النهرين ثم امتداد هذا الصقع شرقاً حتى الهند ، والأثيوبيون الغربيين ، ويقطنون البلاد الواقعة غربي البحر الأحمر وتضم مصر والسودان.

على أن الذين تولوا ترجمة الإنجيل إلى اللغة اليونانية ، استعملوا كلمة كوش وأرادوا بها أثيوبيا ، أي أنهم حددوا أثيوبيا أو شطرها الغربي بالمنطقة المعروفة باسم كوش الممتدة جنوب مصر ، وهي التي اشتهرت بصلتها بمصر منذ أقدم العصور ، وجاء في سفر التكوين أن

كوش هو ابن حام بن نوح ويقال أن لكوش هذا ولداً يسمى إبتيوبس (Aethiopis) وهو الذي سميت البلاد باسمه.

وحين أعيدت ترجمة الإنجيل عن الإغريقية إلى اللغة الأثيوبية المعروفة باسم الجعز ، أطلق المترجمون كلمة أثيوبيا وعنوا بها الحبشة ، وكان هذا الاسم الأخير معروفاً وقتئذٍ ، أي في القرن الرابع الميلادي يوم دخلت المسيحية دولة أكسوم الحبشية.

ويذكر أن كلمة الحبشة هي اسم عربي أصيل وجاء من اسم قبيلة عربيه اسمها حبشت هاجرت من الجزيره العربيه إلي شرق أفريقيا عبر البحر الأحمر ثم سماه الأوربيون ABYSSINIA المشتقة من الحبشة إلا أن الأثيوبيون فضلوا الحفاظ علي هذا الاسم الذى انحصر فقط في دولة أثيوبيا

أثيوبيا القديمة وحدودها:

شاعت في دراسات العصور القديمة كجزء من نشوء الدولة الحبشية فكرة استيطان الكوشيين شرق أفريقيا كافة، وأن الأغلبية منهم عاشوا في الحبشة الحالية والأسوأ من ذلك أن المروجون لهذه الفكرة قصدوا الترويج في تلك الأيام بأن السودان وأثيوبيا بلد واحد لإضافة أن الأحباش مجرد مجموعة صغيرة لاجئة من سبأ اليمنية تداخلوا مع الكوشيين، هذه الفكرة خاطئة تماماً على الرغم من وجود بعض عناصر

الصحة فيها فالكوشيين الذين ينحدرون من الأسرة الحامية كانوا يعيشون لآلاف السنين في جنوب مصر، وللعلم فإن الهكسوس الذين حكموا مصر لفترة من الزمن، ما كان ليتأتى لهم ذلك لو لا تحالفهم مع المجموعات السكانية التي أسست حضارة كرمة في السودان في الألفية الثانية قبل الميلاد وهؤلاء هم سلالة الكوشيين الذين أقاموا في الألفية الأولى عاصمتهم في نبتة – كريمة الحالية- ، ومن المعلوم أن المصريين يستخدمون لفظ كاس لوصف المنطقة، والناس، والمملكة في مناطق السودان قبل أن يتم تشويه هذا اللفظ وتحويله إلى لفظ مات كوسي في اللغة البابلية الآشورية، و كوش في العبرية، و حُص في النص الانجيلي اليوناني ثم أطلق اليونان لفظ أثيوبيا على نفس الأرض، والمجموعات البشرية، والدولة وفي جميع الحالات أرجع النص الانجيلي اليوناني لفظ Aithiopia لما يشار اليه في النص العبري بكوش انها دولة كوش في نبتة التي حكمت مصر لبعض الوقت خلال فترة حكم بعانخي، وشبكا، ونوبوشبتاكا، وتهراقا، وتانوت آمون الأسرة الحاكمة الأثيوبية حسب استخدام مانتو للمصطلح عند وصفه للأسرة الحاكمة الخامسة والعشرين قبل طردهم من قبل الإمبراطوران الأشوريان أشورهادون، وأشوربانيبال اللذان ضما مصر ونفس اللفظ استخدمه اليونانيون في المراحل التالية للسودان الأثيوبي لما قبل

التاريخ المسيحي، عندما قام ساماتيشوس الثاني ٥٩٥عام قبل الميلاد، وقمبيز الذي غزا مصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد بالتوغل جنوب مصر حتى وصلا نبتة – كريمة الواقعة على مسافة ١٠٥٠ كلم جنوب أسوان، أي ١٩٠٠ كلم جنوب القاهرة- على طول شاطئ النيل ودمرا المدينة مرتين، فنقل الكوشيون الأثيوبيون عاصمتهم بعيداً نحو الجنوب الى منطقة البجراوية الحالية لضمان عدم مهاجمتها من الشمال مرة أخرى، ثم نشأت مروي التي بُنيت أهراماتها في الفترة بين سنة ٤٠٠ قبل الميلاد و٣٥٠ بعد الميلاد، المحفوظة حالياً في البجراوية وللرد على فرض استيطان الكوشيين شرق أفريقيا كافة، لابد من الرد أولاً على مدى امتداد الحدود الجنوبية لدولة مروي الأثيوبية، فكافة المختصين يتفقون على أنها امتدت حتى المناطق الواقعة بين الخرطوم وود مدني، فحسب الدلائل المتوفرة فان الغابة الأفريقية كانت تصل إلى هذه المناطق مما يمنع أياً من كان من التوغل جنوباً، وعليه فان مروي الأثيوبية لم تضم أي جزء من حدود الحبشة الحالية، كما أنها لم تسيطر على الجبال الشمالية لأريتريا والحبشة ولا شواطئ البحر الأحمر في السودان الحالي، وبالرجوع إلى المراجع الموثقة نجد أن أحدها سيرة التجارة البحرية اليونانية التي كُتبت حوالي سنة ٧٠ بعد الميلاد، كذلك من المؤكد وجود مجموعات سكانية كوشية خارج نطاق مملكة مروي

الأثيوبية، إلا أنه يصعب تحديد هذه المجموعات حيث لم يتركوا أي آثاراً مكتوبة يمكن فك رموزها وبالتالي الحكم عليها، فما هي إذاً أصول التجمعات السكانية التي سكنت في الألفية الأولى ما قبل الميلاد منطقة الحبشة وأرتريا الحاليتين، قد يخمن البعض أنهم الصوماليون، ولكن لا توجد أي دلائل تشير إلى ذلك، كذلك من النقاط المهمة، أن منطقة الحاميين المصريين ومملكة مروي الأثيوبية خصوصاً في مناطق أخرى للقبائل النيلية الصحراوية التي بعضها من سلالة النوبيين المعاصرين كانوا يعيشون وسط الكوشيين الحاميين، بالتالي من الخطأ الادعاء بأن الكوشيين عاشوا فقط في منطقة شرق أفريقيا.

قبيلة حبشت يمنية وليست سبأية

هنالك أخطاء تاريخية فيما يخص في تسمية الحبشة، فالادعاء بأن الأحباش من مملكة سبأ اليمنية إدعاء خاطئ، لأن فك رموز الوثائق المكتوبة أثبتت وجود قبيلة واحدة في اليمن الحالية تسمى حبشت من المرجح أنهم هاجروا خلال عدة موجات إلى أفريقيا خلال القرن الأول قبل الميلاد عابرين باب المندب، وقد دونت قصتهم بوضوح في الملاحم الحبشية المسيحية كيبرا نيقاست النقطة الأضعف في هذه المجادلة التاريخية الضالة لتسمية الحبشة، وهي الجهود الرامية لتقويض حقيقة اندماج الأحباش مع المستوطنين الأوائل من الكوشيين الأفارقة، ونحن

حقيقة لا علم لنا سواء كانت الدلائل الأثرية التي لدينا هي خاصة بالكوشيين عن الأحباش قبل ظهور الكتابة الجوعزية بما يعني قبل وصول قبيلة حبشت اليمنية، والمجموعات البشرية النيلية الصحراوية وحتى شعب البانتو، لكن المؤكد أن اندماج الأحباش لم يكن كبيراً ولم يؤثر في حضارة أكسوم الحبشية القديمة فالمخطوطة الجوعزية نشأت كلياً من اليمن القديم، وتمثل دليلاً لغوياً واضحاً ينتمي للسامية مع احتوائها على مميزات من الحامية والكوشية، وحتى إذا حدث نوع من الاندماج فانه لم يكن بالأهمية ولم يؤثر على تكون ثقافة أكسوم السامية ما قبل المسيحية وبعدها حيث كانت اللغة المستخدمة تحوي عنصراً أجنبياً آسيوي الثقافة ولكن على أرض أفريقية.

حتى إذا قصرنا الموضوع على فترات ما قبل المسيحية، فلا توجد قواسم مشتركة وأوجه شبه وانتماءات بين حضارة مروي وأكسوم، فأكسوم الحبشية تختلف دينياً وثقافياً تماماً عن المروية الأثيوبية، فأكسوم وأدوليس تجمعان العديد من الانتماءات مع ظفار عاصمة مملكة حمير وميناءها موزع – حالياً مخا-، بينما نجد أن الحضارة المروية الأثيوبية وحضارة أكسوم الحبشية كانتا جنباً إلى جنب لبضعة مئات من السنين لكنهما تختلفان عن بعضهما البعض أكثر من الإختلاف بين اليونانية والفارسية.

التركيب العرقي لأثيوبيا

سمّى الباحث الإيطالي كونتي روسيني أثيوبية متحف الشعوب لكثرة ما فيها من أعراق وقوميات، غير أن أهم الجماعات، من حيث عددها أو هيمنتها على شئون البلاد، خمس هى:-

الأمهريون – التغريون – الصوماليون - الكوراجيون وهم خليط من المسلمين والمسيحيين والوثنيين يمارسون الزراعة البدائية والرعي - الأورومو .

ما قبل أكسوم

إن ما يتوافر من معلومات مستقاة من مصادر قديمة ومن الكشوف الأثرية لا يعود بنا إلى تلك الحقبة البعيدة، ذلك أن نتائج دراسة المواقع الأثرية في شمالي أثيوبية ترجح عبور جماعات يمنية البحر الأحمر في النصف الثاني من الألف الأول ق.م، حيث استقرت أول الأمر في المنطقة الساحلية ثم توسعت إلى الداخل لتقيم حضارة شبيهة بتلك المعروفة في اليمن القديم، والدليل على ذلك النقوش المكشوفة في المنطقتين المذكورتين من حيث لغتها وخطها ومضمونها، وكذلك الطراز المعماري وأسلوب النحت.

وكان الباحثون حتى عهد قريب يرون أن حضارة هذه الحقبة من صنع المهاجرين الذين عبروا البحر الأحمر وحدهم، غير أن الرأي

السائد الآن يذهب إلى مشاركة السكان المحليين في ذلك ويقسمها إلى مرحلتين: أولاهما مرحلة سبئية ـ أثيوبية مشتركة تمتد من عام ٥٠٠ ق.م إلى عام ٣٠٠ ق.م، والثانية مرحلة يظهر فيها تأثير قادم من مملكة مروى في الشمال ممثلاً في الأدوات البرونزية والحديدية والفخارية وفي الحلي الذهبية، وكذلك من مصر الهلينية ممثلاً في الأساليب الفنية في النحت ولكن هذا الأمر لا يعني زوال تأثير اليمن القديم، إذ كشفت قطع برونزية مثقوبة تطور في الخط واللغة على السواء أضف إلى ذلك استمرار ورود أسماء الآلهة وأسماء الأعلام المعروفة في النقوش اليمنية القديمة، وختام هذه المرحلة هو نهاية القرن الأول الميلادي.

<u>مملكة أكسوم</u>

ورد ذكر أكسوم أول مرة في كتاب الإبحار في البحر الأحمر أي في المحيط الهندي وهو دليل ملاحي ألفه باليونانية رحالة مصري مجهول في مطلع القرن الثاني الميلادي ووصف ملكها زوسكالس بأنه كان بخيلاً جشعاً عارفاً بلغة الإغريق وآدابهم، كما وصف ميناء عدولي جنوب مصوّع بأنه كان سوقاً للعاج وأشار بلينيوس إلى هذا الميناء على أنه واحد من أهم موانئ البحر الأحمر آنذاك، وورد ذكر الأكسوميين لدى الجغرافي كلاوديوس بطليموس في القرن الثاني الميلادي وجعل ماني ٢١٦ـ٢٧٤م مؤسس المانوية في كتاب العقائد

مملكتهم إحدى الممالك الأربع في العالم وتدل النقوش المكتوبة باللغتين الجعزية واليونانية - وكذلك النقوش السبئية المعاصرة لها المكشوفة في اليمن - على نشوء هذه المملكة في القرن الثاني الميلادي وعلى عبور الأكسوميين البحر الأحمر إلى الجنوب العربي في الربع الأخير من ذلك القرن.

وفي مجموعة من النقوش تنسب إلى الملك عيزانا ذكر لآلهتهم الكبرى مَحْرم وبحر ومدر ، ووصفاً لتوسعه هو وحلفاؤه شمالاً حتى مروى وجنوباً حتى بحيرة تانا ومما يشير إلى هذا التوسع الألقاب التي اتخذها هؤلاء الملوك، مثل ملك أكسوم وحمير وكاسو وسبأ وحبشة وريدان وسلحين وسيدامو وبُجّة ويرى الباحثون استناداً إلى استهلال أحد نقوش عيزانا بعبارة «بعون إله السماء والأرض» أن المملكة تحولت في عهده - أي في منتصف القرن الرابع أو الخامس - إلى المسيحية ويرجع ازدهار هذه المملكة في المقام الأول إلى مواردها الوافرة من التجارتين البرية والبحرية وقد أورد كوزماس أنديكوبلويستس وصفاً مستفيضاً لذلك في كتابه الطبوغرافية المسيحية الذي يرجع تأليفه إلى منتصف القرن السادس وقد اشتملت الكشوف الأثرية على أدوات ومصنوعات فخارية وزجاجية من حوض المتوسط ومروى والهند ويؤكد ذلك أيضاً المسكوكات الذهبية والفضية

والنحاسية التي سكها ملوك أكسوم فحملت أسماء نحو عشرين منهم وإن كنا لا نعرف عن معظمهم شيئاً وكان لهذه الصلات التجارية الواسعة أثر واضح في الحضارة الأكسومية، فقد أصبحت الإغريقية - بعد أن تحولت إلى المسيحية - لغة البلاط حتى اتخذ الملوك أسماء يونانية نحو، زوسكاليس وأفيلاس وأوساناس واندييبس وسمبروتس ، وأطلقت نقوشهم الإغريقية على الإله القومي محرم اسم أريس Ares إله الحرب الإغريقي.

ووفد على البلاد رهبان بيزنطيون يعرفون الإغريقية والسريانية، وأنشئت الكنائس والأديرة وأقيمت المسلات وشيّدت القصور غير أن كثيراً منها لحقه الخراب والتدمير، فلم يبق من قصور أكسوم الثلاثة اندا سمعون وإند ميكائيل وتعخا مريم سوى قواعدها على أن كوزماس يقول: إنه رأى في أثيوبية قصراً ملكياً يتألف من أربعة أبراج، مما يذكّرنا بالطراز المعماري الذي لا يزال قائماً في اليمن حتى اليوم أما المسلات العملاقة فقد تهشمت خمس منها وبقيت اثنتان، أخذت إحداهما إلى روما عام ١٩٣٧، وظلت الثانية وارتفاعها ٣٣ متراً في مكانها وقد حفر على أحد جوانبها رسم يمثل مبنى مؤلفاً من تسع طبقات ويجد المرء قبالة هذه المسلات ألواحاً حجرية ضخمة يبلغ طول أحدها ١٧ متراً وعرضه ٦ أمتار وسمكه متراً أما العروش والتماثيل الضخمة التي

ورد ذكرها في النقوش، أو وصفها كوزماس، فلم يبق منها سوى المصاطب والقواعد التي كانت تحملها. ومازالت أكسوم تعد حتى اليوم المدينة المقدسة عند نصارى أثيوبية جميعهم، ولم يبق في المراكز العمرانية الأكسومية الأخرى وأهمها عدولى - المهجورة الآن - ومطرا على بعد ١٣٥ كم إلى الجنوب من أسمرة وقوحايتو - قرب مطرا - سوى أطلال كنائس وقصور وبيوت وقبور غير أن أعمال التنقيب الأثري مستمرة في هذه المواقع وسواها في منطقة تبلغ مساحتها زهاء ٥٠ ألف كم٢ في أريترية وتغرين قلب المملكة الأكسومية آنذاك.

وكانت علاقة مصر بأثيوبيا فى هذه المرحاة ناتجة عن التحالف بين بيزنطة المتواجده فى مصر وأثيوبيا بالتبعية فلما حلّ القرن السابع بدأ ذكر مملكة أكسوم يضمحل شيئاً فشيئاً، إذ لا يتجاوز ما يُعرف عنها آنذاك هجرة المسلمين إلى الحبشة وأسماء تسعة من ملوكها على مسكوكات تحمل إشارة الصليب، ويبدو أن اضمحلال دورها يعود إلى أمور منها قيام الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق وفارس ومصر مما أدى إلى إضعاف أكسوم سياسياً بإبعاد حليفتها بيزنطة من الشرق كله، واقتصادياً بإنهاء دورها التجاري براً وبحراً ولاسيما بعد فتح الأمويين جزائر دهلك في خليج مُصوّع وسيطرتهم على الطرق التجارية في البحر الأحمر وثانيهما نشوء

إمارات مسيحية منافسة في الشمال الغربي من المملكة وأهمها علوة ومُقُرّة والنوبة وثالثها زحف قبائل البجّة من الشمال مما اضطر الأكسوميين إلى الابتعاد نحو الجنوب ليستبدلوا بأكسوم حاضرة جديدة هي الناصرة ولا نكاد نعرف عن تاريخ الأكسوميين في القرن الثامن والتاسع شيئاً يستحق الذكر ما خلا حديث اليعقوبي ثم المسعودي عن حاضرة مزعومة للحبشة تدعى كعبر لم يتمكن أحد حتى اليوم من معرفة موقعها ولعلّ هذا ما يجعل الباحثين في تأريخهم لأكسوم يقفون عند القرن السابع ولا يجاوزونه.

تصوّر المصادر الأثيوبية ويجاريها في هذا الباحثون الغربيون الصراع بين المملكة المسيحية الأثيوبية بعد زوال مملكة أكسوم في القرن الثامن أو التاسع الميلادي وجيرانها من المسلمين والوثنيين حتى القرن السادس عشر على أنه صراع بين نظام شرعي وعصاة متمردين بيد أن الحقائق التاريخية تثبت أن هذه المملكة كانت طوال الحقبة المذكورة إحدى دول المنطقة، تتحالف معها مرة وتقاتلها مرات وكانت حدودها تضيق أو تتسع من عهد إلى عهد ولم يصل إلينا من أخبار هذه المملكة حتى منتصف القرن الثالث عشر سوى نتف متفرقة لا تكفي لتأليف صور واضحة عن تلك الحقبة فقد ذكر ابن حوقل في كتابه صورة الأرض أن المملكة المسيحية في زمانه كانت تحكمها منذ ثلاثين

سنة امرأة ثارت على ملكها المعروف باسم الحضاني وقتلته وتؤكد المصادر الأثيوبية ذلك ولكنها لا تحددّ هوية المرأة بل تصفها بأبشع الأوصاف ثم وصل إلى السلطة في ظروف غامضة أمراء منطقة لاستا في شمالي ولاية وَلّو الحالية وترى المؤلفات الكنسية المتأخرة أن هذه الأسرة التي تسمى الأسرة الزغوية لم تكن ذات حق مشروع في الملك بيد أن عهد سابع ملوكها الذي يقال إن عددهم بلغ اثني عشر المدعو لاليبلا شهد بناء مدينة مقدسة مازالت تحمل اسمه حتى الآن في أحد جبال الإقليم المذكور تشمل إحدى عشر كنيسة منحوتة في الصخر صنعها ـ أو شارك في صنعها ـ بنّاؤون قدموا من الخارج، مما جعل الكنيسة الأثيوبية ـ فيما بعد ـ تعدّه قديساً.

اللغات

تقسم اللغات الأثيوبية إلى ثلاث مجموعات كبيرة: كوشية ونيلية وسامية فأما أولاها فأهمها الصومالية وهي السائدة في أوجادين، والأورومو وهي لغة القبائل المعروفة بهذا الاسم وتسمى أيضاً الغاليّة نسبة إلى الغالا، وأما الثانية فتضم مجموعة من لغات القبائل الصغرى في أريتريا ومنطقة الحدود مع السودان وهي محدودة الانتشار وأما المجموعة السامية فأهم لغاتها ست: الجعزية والأمهرية والتغرينية والتغرية والغوراجية والعربية، وتعد الجعزية أقدمها وأهمها لأنها لغة

النقوش الأكسومية ولغة التراث الأثيوبي حتى عهد قريب، وخطها متطور عن الخط العربي الجنوبي المُسند الذي أضيفت إلى حروفه رموز للحركات فخلّصته من اللبس وعدم الوضوح، غير أن الأمهريه أخذت منذ القرن الثالث عشر تحل محلها بسلطان حكام أثيوبية الأمهريين وكانت أول الأمر لغة الحديث للقومية الأمهرية وحدها، ثم انتشرت انتشاراً واسعاً حتى أصبحت اللغة الرسمية والأدبية للبلاد، فتراجعت الجعزية واقتصر استعمالها على الشئون الكنسيّة، شأنها في ذلك شأن اللاتينية في أوروبة في العصر الحديث ويلي الأمهرية في الانتشار التغرينية ومواطنها في شمالي أثيوبية وبعض مناطق أريترية وتغري، فالتغرية في أجزاء من أرتيرية، والغوارجية في المنطقة التي تحمل اسم غوارجية في جنوب أديس أبابا وهي تتفرع إلى لهجات متعددة أما العربية فموطنها في المنطقة الساحلية حيث يكثر المسلمون، وهي لغة التفاهم في الأسواق والمراكز التجارية في الداخل ولها مكانة خاصة في المدارس الإسلامية في هرر وسواها بصفتها لغة القرآن الكريم وظلت العربية والتغرينية لغتين رسميتين لحكومة إقليم أريترية حتى عام ١٩٥٧.